الأديبة مي أسد سمعان

عمالة طفلة / زواج قاصر

كانت "ساره "في الثامنة من العمر عندما ارْسِلت مع شقيقتِها التي تكبُرها بسنتين لتعمَلَ خادمةً في احد المنازل في العاصِمة "بيروت..".

لم تشتكِ من العمل ولم تكن تسمع بما يسمّى "عمالة الاطفال" ولا بحقوق الطفل او المرأة... فقط كان على الاولاد ان يسمعوا كلمة الاهل والابوين تحديدا ولا يعترِضوا ..وهكذا كان...

لم تسال "سارة" أمها عن المدرسَة ، ولماذا تذهب بنات الجيران إليها وهي لا تفْعل...كانت الطّاعة طبعا فيها ..ولذا حَزمت حقيبَة طفولَتها والتحقت بأختها التي سبقتها الى العمل.

تعلمت الطاعة في البيت الابوي وتم تكريس هذا الخضوع في مكان العمل ..كلام ربة البيت مقدسٌ ، وكلّ ما تريده منها ،يجب ان ينجَز..

لم يكن لطقوس الطفولة مكانٌ في حياتها..يجب أن تعتنيَ ،وهي الطّفلة، باطفالٍ هُم في سِنّها او اقل..يجبُ ان تسلّيهم وتلبي طلباتهم واحتياجاتهم

...وربما تسنّى لها انْ تتعرّف على العابهم واشيائهم التي حُرِمت منها ...وان تتسلّى هي بها ايضا...

كانت ربّة المنزل لطيفة معها ومع اختها، وكذلك زوجها واولادهم ايضا ...لم تشتك من احد ..

لاحقا ادركت انها تحِبّ ان تنزلَ لتتمشى في الشارع لتتفرّج على الواجهات والازياء او في الحديقة ولكنّها لم تكنْ لتفعل...

كما راودتها افكارٌ تشبه حرّية التّصرف او الغناء او الرّقص او القول ..ولكنّها لم تتصرّف ولم تقل...

وتمنت "سارة " ،بعد ان كبرت قليلا ،ان تتحدّث مع ابن الجيران الذي كان يقصد البيتَ الذي تخدُم فيه ، ببعض كلام ، ولكنّهاا اكتفت ببعض نظراتٍ وبعض حياءٍ وبعض احلام...

وعندما بلغتْ الخامسةَ عشر صارت تستطيع ان تذهبَ الى أخيها الذي يعملُ في مدرسةٍ "الحكمة "،وليست بعيدة عن مكان عملها، وتقضي عنده بعضَ الوقت

...وان تصادفَ شابا احسنَ ملاطَفتها واستحسَن جمالها وحياءَها ...وبعد عدّة لقاءات معَه في مركز عمل شقيقِها طلبَ يدَها للزواج ...و تم استئذان العائلة حيث تعمل فرحبت بالفكرة وانتحت بها ربة المنزل لتعطيَها ما يستحق لها من نقود ..وخشيةَ ان يذهَب المبلغُ كُلّه ولا يبقى لديها منه شيٌ او ان تصرفه وضعت لها في يدها سِوارا ذهبيا وفي أذنيها قرطين ذهبيين.. يا لها من امرأة!

وعادت "سارة" الى منزل ذويها في الجَبل بعد ان وعدَها الشاب بزيارة تعارف اولى للاهل...

واستفاقت ذات صباح لتَرى ذاك الشابَ وقد طرق الباب وهو في غاية الشوق واللهفة...

لقد اتى من بيروت بواسطة دراجة . هوائية وقد استهجنت الام فعلته ..واستخفت بتصرفه...

ولم تجد الفتاة ما تدافع به عنه...

لم تقل انه في بداية حياتِه ويستهويه ركوب الدراجات و ربما يجد في ذلك اثباتا لحبّه وقد تحدّى مشقة القيادة من بيروت الى الجبل حيث يقصد...

ولم تقل لامّها ان تتعرّف به وعليه اكثر لعلها تنسى سائر التفاصيل او الوسيلة التي اعتمدها للصّعود الى الجبل ،أو ان المثل يقول " يا متلنا تعا لعنا" وانه يحِبِها وسيجمعهما بيت متواضع ، شقة صغيرة في احد شوارع العاصمة..

انتهت الزيارة وظلّ صدى اعتراض الام جاثِما في مخيّلتها ..ومع ذلك استمرّ التواصل بواسطة شقيقها يرسل اليها بعضَ الهدايا الرمزية..ويحثّها على النزول الى" بيروت "لمتابعة تحضيرات الزّواج..

نزلت عند رغبته الى "بيروت" والتقيا مجدّدا وطلب اليها ان ترافِق امّه وشقيقتيه لتشتريَ ما تحتاجُه من ثياب وقماش وما سوى ذلك .. وفعلت ما اشار اليها به...

مشت الى جانب النِسوة وهي حائرة ومتردّدة..هل تُعصي امّها وتستانِف علاقتها بذاك الشاب الذي اعتبر أرْعنا ومتهوّرا في نظَرِ اهلها..

أسئلة كثيرة جعلتها لا تركّز انتباهَها على ما يُعرض امامَها من ثياب واقمشة فتوافِق على ما لا يعجبُ حماتَها المستقبلية وبناتِها وهنّ خبيرات بالشِراء والتبضُّع والاسواق وهي عديمة التجْرِبة .. كيف لا وهي في سن صغيرةٍ، وقد حُرمَت هذه المتْعةَ لانّها كانت خادمة...

وسَمعتهن يتهامَسْنَ ..ويشتكينَ من ذوقِها واختيارها لما هو بخْس وغيرُ مناسِب...

ولكي تنتقمَ من حَرجِها وكرامتها المهدورة ولتردّدها بسبب اعتراضِ امها_وقد اعتادت ان لا تخالف لها رايا_...ما إنْ عادوا من التّسوق الى البيت ،صارَحت ذاك الشاب برفْضِها الزّواج..

وأقلّت اوّل سيّارة من الموقِف الذي كانت تعرِفه وصَعدت الى الجبل..لترسم لنفسها قدرا آخر مفتوحا على المجهول المطلق..

مرت ثلاث سنوات وتفتّح الجمال اكثر فاكثر واقبل من يخطب ودّ الفتاة ويدها ....لم يعجِبها احدٌ من شباب القرية اذ لم يكن هناك تعارف مسْبق ولا طفولة مشتركة ولم تكن ممن يخرجن للتسلية مع الفتيات والشبان، فبلغت سن العشرين دون ان تتزوّج.

وكانت تسمع انّها كبُرت ولم يعجِبها عجَبٌ كما يقال، واستعادت ما قالته امها اكثر من مرة بانها قصيرة القامة وانها لن تكون محط اعجاب الخطاب ،والعمر بدأ يهرب من امامِها كما يشاع..

فيجب ان يتصَرف الاهل ...يجِب..

ولم تكن زوجة اخيها كسولةً فبدأت حملة اقناعٍ وعززتها أمها لإحكام الطوق ..ولاقتياد العصفورة المهيضة الجناحين الى القفص " المذهب"راحتا تسألانها:

ما رايك بفلان ؟

هو ابن ضيعتنا وقد ارسلت له اخته من المهجر مبلغا من المال وهو يتردّد لعندنا وينظرُ اليك بإعجاب ...؟

لم يرق لها ذاك الشابُ فهو يكبُرها بعشرين سنة ..اضف انَّ قلبها لم يخفق له ابدا.

...تدخّل زوجُ شقيقَتِها عندَئذ واشادَ به ، وشعرت امّها ببعض اعتزاز لانها ستزوج ابنتيها في الضّيعة وستظلان بقربها ..وهذا كانُ يعدّ إنجازا لها آنذاك.

لم تدرِ "سارة" كيف خرجَت من فمها كلمة "موافقة" حتى استتبّ كلُّ شيء وبدات التحضيرات السّريعة بمعونَة الكنّة الخبيرة بأمور الدنيا وهي ابنة المدينة..

تتذكر ذاكَ اليوم الحزين وكيف انّها قبيلَ انطلاق الموكب من البيت الى الكنيسة عَبّرت عن رفضِها للزّواج بذاك الشّاب وانتابها خوفٌ شديد من الخطوة وتعالت الاصوات من حولها مستنكرة وشاجبة..

لقد قطعوا "ورقة الصلا "اي المباركة الكنسية الرسمية من البطريرك .. ولا تجوزُ. ابدا العودةُ عن الامر...

ومشوا بها وتذكر كيف كانت زوجة اخيها تشجعها وتقول لها سوف تحبينه وهي تضحك ملء فيها...

لم تكن الكنيسة بعيدة عن البيت ولكنها كانت بنظر "سارة" طريق جلجلة وكان الوقت قبيل الغروب

وكان شحوب والسماء رمادية

..وعندما دُقّ الجرسُ تساءلَ النّاس ماذا يحصل وتهافت اهل القرية ليروا "سارة" وسط ابويها وعائلتها وقد تهيأ العريس والإشبين وحضر بعض الاهل معه..

لم يكن بوسع العريس ان يقيمَ احتفالا بسبب فقدانه لاحد انسبائه منذ مدة وجيزة... وارتبط الحزن بمشهد الغروب وجرس يدق دقات الفرح ولكن صداها في قلب" سارة' كان مختلفا ولعلها شعرت بأنّها تمشي بنفسها الى قدرِها وأنّ الطريق كلها عثرات لان الحبّ اخطأها ومتى يغيب الحب تتناثر الاوراق وتعرى الاشجار ونعرى ..نعرى... ونبرد حتّى الصقيع ..

طلع الصباح في الغداة على الطبيعة ولكنه لم يطلع على عروس شاءت ظروفها ان تسوقها حيث لا تشاء ولم تشأْ.

مرت اشهر وحاولت سارة ان تتكيف مع وضعها الجديد وقد نسيت كل الاحلام وابقت على عشقها لاغنيات" فريد الاطرش وكانت تهرع الى الراديو لتصغي الى اغنية:"عذاب عذاب عذاب يا دنيا العذاب..". وكانت تعتقد انه يغني لها ومن اجلها .

وجاء الفقر ليرخي ثقله على العائلة ويضاعف معاناة "سارة" وقد اصبحت اما وانجبت ابنة ...اسمتها " امل".

لكم وضعتها في ذاك السرير الخشبي وراحت تشتغل في البيت وخارجه ..

ولكم ذهبت تملأ الجرار بالماء من بئر بعيدة..

ولكم اشعلت النار تحت الدست وعصف الهواء في الرماد والنار جالبا الدخان الى العينين العسليتين الجميلتين...

ولكم كابدت وعانت ...وقد فشلت في التفاهم مع الزوج من اجل التعاضد وتخفيف الاعباء النفسية

ولكم اهتز فانوس الحنان في العشايا والصباحات واصطك الغضب واحتدم جدال ...

ولم تشفع طيبة الزوج به ولا ثقافته في كسب قلب الزوجة ولكم اغضبه منظرها وهي تضع ذاك العقد الاخضر وترتدي ذاك الثوب الاخضر..ليمد يده وينتزعه من عنقها وتسقط حباته في الارض وتحتمي في زوايا البيت...

ولكم ساءه ان تصغي الى أغنيات الحب ينشدها" فريد الاطرش " و"عبد الوهاب "

ولكم ساءه ان تعتني بالازهار اكثر مما تعتني به حسب اعتقاده ..سأقصُّ الوردة الحمراء، ليحرِقَ قلبها كما احرقت قلبه..

وتتوالى الفصول وتستمرّ الحياة ،وتخضَر الطبيعة وتورق ، ويولد اطفال، وتكثر الافواه .. ويظل الحنان ملتبسا فاقدا هويته لان فاقد الشيء لا يعطيه..

لم تعط الحنان ولم يؤذَن لها بالحب فتحولت الى كائن بيولوجي مُنجب

يبست منارات القلب واضمحل الفرح...

الاطفال يحتاجون الى عيش الطفولة

القلب يحتاج الى عيش الحب كي ينبض ويشع...

الابناء ليسوا الا ابناء الحياة..فهي من ترفدهم وتقويهم

فحتام نستمر في قمعهم وتبديد احلامهم واغتصاب طفولتهم ؟

حتام نجهز على ابنائنا وبناتنا ونريد لهم ان يقبلوا من نختاره لهم نحن؟

انها معضلة معظم اهل الشرق..

فما أكثر أحلامنا وما اشد عاهاتنا ...